سلسلة دروس (رفع كفاءة طالب العلم ليؤدي دوره في الإصلاح)

المحاضرة الرابعة: (ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)

وفيها مقدمةٌ عن جملة من الانحرافات تسرّبت إلى كثير من طلاب العلم، أسبابُها وسُبل الوقاية منها.

✍ حسين عبد الرازق

الحمد لله رب العالمين وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمد عبده ورسوله ﷺ؛ أما بعد:

أهلا ومرحبا بطلاب العلم، خيرةِ الشباب من يطلبون الفقه في الدين والاستقامةَ عليه والدعوةَ إليه وبيانَه والفرقانَ بينه وبين الباطل.

أقول في بداية حديثي أيها الشباب أريد التحدث إليكم بكلام من القلب أرجو أن يكون تأسيسيّا لكم في الحديث عن الفرق بين صورةِ المعرفة وزُخرفها من جهة وبين جوهرها ومنفعتها من جهة أخرى.

أقول:

لعل أعظمَ جريمةٍ في شأن المعرفة أن تكون مطلوبةً لذاتها مجردَ جمع معلوماتٍ أو للتفاخر بها والمباهاة وإرادة العلو أو للجدالِ والمناظرة والإفحام أو للتصدّر وصرف الأنظار وكل ذلك مما جاءت الشريعة بنفي أن يكون مقصدا للمعرفة أو أن يكون صاحبُها محمودا عند الله مرضيّا عنه، وذُكر أقوامٌ حذّرنا الله من طريقهم لديهم هذا النوع من المعرفة دون أن ينتفعوا منها دون أن يتصرفوا بناء عليها

أصل ضلال جهم بن صفوان من تبعه في الإيمان:

- ✓ فالإيمان عندهم شيء واحد، يتساوى فيه العباد، لا يتبعض، ولا يتفاضل، وهو مجرد تصديق القلب وعلمه، هو مجرد تصديق القلب وعلمه.
- ✓ وأعمال القلوب ليست من الإيمان عندهم.
- ✓ وأخرجوا حتى قول اللسان، جعلوا من لا يتكلم بالإيمان قط –مع قدرته على ذلك، ولا أطاع الله طاعة ظاهرة، مع وجوب ذلك عليه وقدرته–يكون مؤمنا بالله، تام الإيمان، سعيدا في الدار الآخرة"
- ✓ كما أخرجوا أعمال الجوارح من الإيمان.

نعم هم يوجبون الأعمال الظاهرة، ويعتقدون نفعها، لكن من لم يأت بها فإيمانه تام.

وبالتالي: فالكفر عندهم لا يكون إلا بزوال التصديق من القلب.

الشبه بين قولهم وقول الفلاسفة المشائين = يشبه قول من قال من الفلاسفة المشائين وأتباعهم إن سعادة الإنسان في مجرد أن يعلم الوجود على ما هو عليه= **وهذا من أظهر الباطل** وهو مخالف للفِطر السليمة وللوحي والعقل فلا

يمكن أن يكون صلاح الإنسان في مجرد معرفة الحق دون حبه وإرادته واتباعه ولا يمكن أن يكون سعيدا مرضيا عنه بمجرد ذلك بل أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه.

كما أن الإنسان يا شباب قد يعرف أن الحق مع غيره، ومع ذلك يجحد ذلك؛ لحسده إياه، أو لطلب علوه عليه، أو لهوى النفس، ويحمله ذلك الهوى أن يعتدي عليه، ويرد ما يقول بكل طريق، وهو في قلبه يعلم أن الحق معه.

وعامة المكذّبين للرسل كانوا مصدقين عارفين صدقهم لكن منعهم الهوى أو الحسد أو إرادة العلو أو حب الدنيا والرياسة أو إرادة التميّيز عن الضعفاء وإبليس وفرعون ومشركو أقوام الرسل كذلك.

- ولهذا حجج المشركين من مثل قولهم لنوح: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء:١١١].
- كما طلب المشركون من النبي ﷺ إبعاد الضعفاء، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢-٥٣].
- ومثل قول فرعون: ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، قال فرعون: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨-١٩].
- ومثل قول مشركي العرب: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧]، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].
- ومثل قول قوم شعيب له: ﴿أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء﴾ [هود: ٨٧].
- ومثل قول عامة المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وأبو طالب وغيره كانوا يحبون النبي ﷺ، ويحبون علو كلمته، وليس عندهم حسد له، وكانوا يعلمون صدقه، ولكن كانوا يعلمون أن متابعته فراقُ دين آبائهم، وذمَ قريش لهم، فما احتملت نفوسهم ترك تلك العادة، واحتمال الذم، فلم يتركوا الإيمان لعدم العلم؛ بل لهوى النفس، **فهل يقال بعدها**: (إن المعرفة وحدها موجبة للإيمان والسعادة دون إرادة أو حب أو عمل بمقتضاها).

وكل ذلك له تفاصيل ليس هذا موضعها....

إذن:

المعرفة يا شباب مقدمةٌ وليست نهاية، مقدمةٌ للعلم بالشيء والتفاعلِ معه والعلمِ بالحق وإرادتِه والعملِ به واتباعِه والرجوعِ إليه والدعوةِ إليه، والعلمِ بالباطل وبغضِه والانصرافِ عنه والتحذيرِ منه.

هذه مقدمة: لحديثي عن آثار تلك النظرة للمعرفة والإيمان على الدرس العقدي

فأقول: أحدُ أكبر الانحرافات التي تسرّبت إلى الدرس الإيماني / العقدي، وكثيرٍ من كُتب العقيدة: الاعتناء بصورة المعرفة وزخرفها دون مقتضياتها وآثارها؛ **أعني:**

حصرَ الإيمان والعقيدة في مجرد العلم والتصديق وإخراجَ العمل، والأخلاق، والجهاد، والأمرِ بالمعروف والنهيَ عن المنكر –ضمنًا أو تصريحا–من خُطبهم ودروسهم وكُتبهم. ليس من ناحية التقرير والاستدلال بل من ناحية الممارسة والتطبيق

حتى صارَ بعض الذين يُسمّون أنفسهم: أهلَ السُّنة والأثر، أتباعَ السلف، يقولون: (الشخصُ السلفيُّ الأثري صحيحُ الاعتقاد مهما فعل من فواحش ومنكرات ولو كان سيئَ الخُلق = فهو خيرٌ ممن كان على بِدعة ولو كان مُحتسبا مجاهدا خلُوقا، ولو كان من أعبدِ النّاس!، ونحوَ هذا الكلامِ الذي يُصوّر لهؤلاء، ويُصوّرون هم لمستمعيهم: (أنّهم يمكن أن يكونوا (صحيحي الاعتقاد سُنيّين سلفيّين أثريّين) بمجرد: إثبات الصفات، والقول بأن الله يخلق أفعال العباد، وإثبات الشفاعة، وعدم الخروج على الحاكم، وغيرها من العلم المجرّد!

حتى صار هؤلاء الجهلةُ بمعنى الإيمان، المفرّطون في العمل به= يَبغون ويستطيلون بما عندهم من معلومات ومعارف وما سمّوه عقائد، وحصروا فيها (صحة الاعتقاد) !!

وصارت دروسُهم في العقيدة (مع ضحالتها وضعفها) هي مجرّد: أقوال ومعلومات ومُحاججات:

إن قال لك الأشعري كذا = فقل كذا.

وإذا استدلّ المعتزلي عليك بكذا = فألزمْه بكذا.

ولو احتجّ الصوفيُّ بحديث كذا فقل له: إنه ضعيف.

وهكذا....

ويعيشون على ذلك سنينَ عددا ينتقلون من كتابٍ لآخر بنفس المنهج، ويُحبون أن يكونوا غُرباء بين المسلمين مُنعزلين عنهم مُتميّزين، وهم على ظنٍّ بكونهم –وحدَهم– (الفرقة الناجية، الطائفة المنصورة) بمجرّد ما هم عليه، لا يُكفّرون غيرهم صراحةً، **لكن**: يُعاملونهم معاملة غير المسلمين ويحقرونهم ويرون أنهم الأعلى!

ويرفعون رايات العقيدة –هذه– ويبعثون خلافاتٍ قديمة ويُنعِشونها ويُثيرونها من جديد –ربّما دون أدنى داعٍ –ويَحصرون كلامهم ودروسهم وخُطبهم فيها لأنهم يقتاتون منها؛ ولأنه لو انتهى الكلام فيها= لم يجدوا ما يقتاتون منه، ويرفعون به عقيرتَهم ويستطيلون به على إخوانهم!

ولا يتكلمون في شعائر الإسلام الجليلة العظيمة مثل الصلاة والصيام والزكاة، والجهاد في سبيل الله ووجوب التحاكم إلى الشريعة ونحوها.

وإن تكلموا في بعضها كـ (الجهاد وتحكيم الشريعة) مثلا = **حرّفوا معانيه**.

- **ففي الجهاد** يشترطون شروطا ربّما لم تتوفّر في (غزوة بدر) !! ليُبطلوا كلّ جهاد، وليقدحوا في كل مجاهد.

- **وعن شعيرة** (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر/الاحتساب) فقد حرّفوها، وفرَّغوها من مضمونها حتى أضعفُ الإيمان فيها = الإنكارُ بالقلب أجهزُوا عليه، وسلّطوا ألسنتهم على كلّ مُحتسبٍ قائمٍ بحق وسَعَوا في إيذائه.

فلا هم قاموا بها باليد ولا باللسان ولا بالقلب. ولم يسلمْ منهم القائمون!

- **أما الولاء والبراء:** فعكسوا القضيّة =صاروا أذلَّةً على أهل الأوثان، ونظّروا للتعاون معهم وموالاتهم، واستعلوا على إخوانهم المسلمين، واستطالوا ونصبوا لهم العداء. بل جعلوه قضيتَهم التي عليها يحيَوْن وعنها ينافحون، وبها يأكلون!
- **وفي تحكيم الشريعة:** لا يتكلمون إلا عن: كون الحاكم بغير ما أنزل الله لا يكفر (بغضّ النظر عن المسألة). وهكذا ولم يتكلموا عن المحكَم الأعظم: وجوب الحكم بالشريعة وحُسنها وثمراتها. لم يتكلموا عن ذلك رغبةً أو رهبة أو جهلا وتجهيلا.

لا ينشغلون بمصالح المسلمين، ولا بآلامهم وجراحاتهم وقضاياهم الكبرى، ولا نحفظُ لهم موقفًا شريفًا في شأن الإسلام والمسلمين؛ أمّا المخازي= فحدِّثْ.

فما أقبح أثرهم على المسلمين وعلى معنى: العقيدة والإيمان والعلم!

-بل الشخص العادي سليمُ الفطرة {الذي ليس بعالم} لا يمكن أن يُصدّق أنّ ذلك الذي ينشرونَه دِينٌ يرضاه الرحمن!

-وكلامُهم الباطل ومواقفهم المخزية في نُصرة الظالمين تجعل للكافرين والعلمانيين على المؤمنين سبيلا. حيث يُشبِّهونهم برجال الدين في القرون الوسطى الذين كانوا مع الظالم على المظلوم، يجعلون الظلمَ والرّضا به دِينا يُتقرَّبُ به إلى الله! فيُقدّمون للعلمانيين فُرصةً للنَّيْل من الإسلام نفسه: انظروا. ألم نقُلْ لكم: إن الكهنةَ أعوانُ الطغاة؟!!

وصدق ابنُ تيمية إذ قال: (كم مِن زنديقٍ في عباء، وكم من صِدّيق في قُباء -يقصد لبس الأعاجم يعني يُوجد الأولياء في غير المنسوبين إلى العلم كما يوجد في المنسوبين إلى العلم فاجرٌ فاسق).

قلتُ: وميزانُ الإيمان الحق تجده على أحسن بيان وأتمّه كتاب الله وحديث رسوله ﷺفي مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

ووصية لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾، **هذا ومثله هو الميزان الحق، ومن بطّأ به عمله لم يُسرع به نسبه.**

لذلك أقول لك أيها الشاب طالب العلم= أبصِر نفسك، وزِنْ عملك بالوحي لا تنخدع بتلبيس هؤلاء، فإنّ كلامَهم سُمٌّ قاتلٌ =يقتل فيك وازِع الإيمان ومقتضياته، بل يقتلُ فيك النّخوة والمروءة! .

ومن الطريف: أنهم في دروسهم يردون على جهم ويُعددون في الحجج والاستدلال عليه بينما يعيشون كلامه ويمارسونه ويبغون به ويستطيلون ويحقرون غيرهم ويرون أنهم الصفوة والخاصة والخلاصة الفرقة الناجية والباقي عوام دهماء بسطاء هلكى! ذلك مبلغهم من العلم.

ومن آثار تلك النظرة المشوهة للمعرفة: يقضي طالبُ علمٍ أياما وشهورا وسنين في جمع وتحرير مسألةٍ وبيانها والاستدلال لها والمناظرة عليها كـ (دخول العمل في الإيمان) ونقض قول (الإيمان مجرد المعرفة والتصديق) مع أنه لم يسعَ في نفسه في طلب شُعب الإيمانِ، ولا العملِ بها ولا التخلق بها، ولم يَلُم نفسه على التقصير في ذلك، بل هو راضٍ عن نفسه.

وغايةُ الإيمان عنده فعليًا: مجرد (تصديق ومعرفة) جمع معلومات ومعارف مُجردة يتيهُ بها، ويجلد غيره، ويُفحمه ويُقيم عليه الحُجة، ويُصنِّف الناس بها.

وحينما يقضي عُمرا في بيان (صفة النزول) مثلا ومناقشة المخالفين فيها وبيان ضلالهم والرد عليهم مع أنها ضِمنيّة في حديث النبي ﷺ، لم يُسق لها خاصةً بل سِيق لبيان فضل ذلك الوقت والحثّ على قيامه والدعاء فيه والاستغفار والسؤال والذكر، ثم ينامُ الليلَ كُلَّهُ، بل رُبما لا يستيقظ إلا بعد شروق الشمس ويُضيّع الفجر، يعلم أنّ ربّه تعالى يقول: «هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟».

فلا يُجيبُ ولا يكترثُ بأنه لا يُجيبُ!

حينما يبقى سنين يضبط تلاوة القرآن، ويُثبّت حفظه، ويُحسن صوته به، ويتعلم المقامات، ويأخذ الأسانيد، وهو لم يطلبْ تفسيرَه ولا قصصه ولا أحكامه، ولم يقف عند حدوده. فقد ضيَّع أعظم مقاصد القرآن ﴿ليدّبروا﴾ – ﴿وليتذكرَ﴾،

وهكذا:

يضل المرءُ عن الغايات وأعظم المطالب ويفنى في الضِمنيات أو الجزيئات أو الشكليات = حتى يبقى صورةً بلا روح، وجسمًا دون قلب، وهو يحسبُ نفسه على شيء، وغايةُ ما بين يديه كسرابٍ بقِيعةٍ يحسبُه ماءً حتى إذا جاءه لم يجدْه شيئا ووجد اللهَ عنده فوفّاه حسابَه واللهُ سريع الحساب.

وقال حفص بن حميد: (دخلت على داود الطائي أسأله مسألة وكان كريمًا، فقال: أرأيت المحارب؟ هذه كلها صور للعلم الذي بلا عمل، ما مثل العلم بلا عمل؟ قال: "أرأيت المحارب إذا أراد أن يلقى الحرب، أليس يجمع آلته، فإذا أفنى عمره في الآلة فمتى يحارب؟"

ومن آثار ذلك تلك النظرة المنحرفة للمعرفة: أن كثيرا ممن تلقّى المعرفة على أنها مجرد معلومات:

- ✓ ظلّ ينظر إلى المواعظ على أنها: تصوُّف ودرْوشة.
- ✓ وإلى أبواب العبادة والنوافل: على أنها ليس أَولى ما يُشتَغلُ به ولا أن يُبذل له ولا يُتفَقَّدُ ويُحاسَبُ عليه

ولو لامَه أحدٌ على تقصيره فيها: اتّهمه بالدروشة والعبَط= حتى سقط مغشيّا عليه في بحر شهواتٍ لا ساحل له وليس معه ما يُقاوم به، ولم ينفعه في محنته تلك: كميّةُ المعلومات المجردة التي كان يحرص على جمعها!

ومن آثارها: إهمال الاعتناء بالعبادات والقيام بحقها بحجة الانشغال بالنفع المتعدّي.

فأقول:

للعبادة الصريحة كصلاة الجماعة والنوافل وقيام الليل والذكر والاستغفار والدعاء وتلاوة القرآن والصدقة والصيام والعُمرة والحج. ونحوها آثارٌ وثمراتٌ عظيمةٌ جليلة على النفس يحتاجها العبد لا يمكنه الاستغناءُ عنها ولا تعويضُها ببديل آخر لا طلب العلم ولا الدعوة ولا الإصلاح.

ويكون لها نصيبٌ عظيم في تثبيت العبد عموما، وعند الفتن خصوصا؛ بل قل هي خيرُ ترجمان وأقوى برهان على صحة طلبه للعلم وإصلاحه ودعوته؛ وهي أعظم غاية يطلبُ لها العلمَ، ويدعو إليها= ﴿إلا ليعبدون﴾.

وكلُّ من يُسلّي نفسه ويبرر لها تركها لهذه الأبواب من الخير والطاعات بحجة انشغاله بالأهم، والنفع المتعدي –طلب العلم، والدعوة والإصلاح = فهو غاشٌّ لنفسه يسير بها في طريق خطأ.

ومن التفسيرات الأساسية لظاهرة انحراف وانقلابهم على الأعقاب عند كثير من طلاب العلم والدعاة = تركُ تزكية النفس وإهمال تلك العبادات

ومن آثار تلك النظرة المشوهة للمعرفة: إدمان حب الجدل والمحاجة والمخاصمة من خلال مُدارستي مع كثير من المجموعات علمَ العقيدة = كنتُ أجدُ بعضَ الشباب المتعجّل للدخول في التفاصيل والتطرُّق للجزئيات قبل وقتها، المولعِ بإيراد الإشكالات والشبهات حتى دون أدنى داعٍ، ودُون أن يتصور أو يُحْكم أصلَ ما يُقال أو حتى يفهمه جيدا أو يعرف أدلته ووجهَها!

أو تراه: يذكر شبهاتٍ لا تُناسب الكتاب، ولا تناسب مستواه كمبتدي، ولا موضوع الدرس والهدف منه.

مشغولٌ دائما بــــ: كيف نَقنع غير السُّني، أو العلماني أو الملحد أو غيره، مُغرم بالمناظرات والردود، يتفنّن في اختراع شبهات رُبما لا أعلم في حياتي من أثاراها، أو فكّر فيها.

ومع هذا: فهو لا يعتني بضبط الأبواب ولا القواعد ولا المحكمات.

ويقول: أريد أن أتخصص في ردّ الشبهات!

قلتُ: والله لم أر واحدا من هؤلاء أفلحَ في دراسته؛ **بل:** يعيش في اضطراب وقلق وشبهاتٍ هو مَن أدخل نفسه فيها دون أدنى داعٍ؛ فلا هو مُتعلمٌ مستيقنٌ مُطمئن؛ ولا هو (من باب أولى) يستطيع أن يُقرّر حقّا، أو يُفصّل باطلا ويكشف زيفه!

ووالله كثير منهم ترك طلب العلم من أساسه!

ووُجود هؤلاء قد أفسدَ كثيرا من الدورات العلمية حيث يخرجُ المعلِّمَ عن موضوع الدرس وهدفه فيتحوّل الدرس إلى فتاوى مبتورة، أو جدالٍ ناقص لا يزيدُ الأمور إلا التباسًا، ويجني على موضوع الدورة الأساس!

ولا يتحمّل ذلك هؤلاء وحدهم. بل يتحمّله كذلك المعلّمُ قليلُ الوعْي حيث لا يعِي دوره كمعلّم مُديرٍ للدرس يفهم طبيعة عمله وموضوع درسه وأهدافه فلا يحيدُ عنها إلا لما هو في صالحها.

وكنت أنصح أمثاله فأقول:

- ✓ اعتن بنفسك، واطلب الهدى لها من وجهه أوّلًا قبل أن تفكّر في تفاصيل وجزئيات، أو دفع إشكالات، أو رَد شبهات أو إقناع مخالف.
- ✓ –واطلب المحكمات والقواعد واعرفْ حُجَجَها، وكبار المسائل وصورها واطلب الحق فيها بأدلته ووجه الاستدلال منها، ثم ما أشكل عليها ورَدّه، ثم استقِم عليه.
- ✓ –ثم اطلب علم الاستدلال والتقرير، وطرائق النقد والمناظرة.
- ✓ –ثم فكّر بعد ذلك في أن تُقنع غيرك.
- ✓ –وادخل البيوت من أبوابها.

ومن آثاره: أنك ترى بعض من يُصدرون كشيوخ المحنة وأعلام الأمة يطلق لسانه في أعراض الناس ويسخر من شكلهم وخلقتهم وطريقة كلامهم و(يألش) عليهم ويقوم بأداء مسرحي على المنبر سخرية واستهزاء كسوها زورا لباس العلم والدين والاحتساب.

ومنه: الانعزال عن الناس وطلب الغربة حسبوها شيئا يُطلب ويُسعى له ويُتعمّد ويُختار!

وآثار أخرى سيئة عظيمة الخطر....

أيها الشباب: المعرفة التي يرضاها الله شيء آخر.

- ✓ اقرأها في مثل قوله عن أولئك القسيسين قال الله سبحانه: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وهذه الآيات تسجيل لأعظم أنواع الاستجابة للوحي استماع وعقل وتدبر وقبول وعمل ورجاء وطمع ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ كل من أحسن الأخذ والعمل.

- ✓ اقرأها فيمن كانوا يريدون الدنيا ..كفارا سحرة يروجون للباطل ويعنون الفسدة الطغاة فلما تبين لهم الحق استجابت له كل ذرة منهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ

وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

لذلك كانت هذه الحاضرات = (حاجة طالب العلم طالب الإيمان إلى الاستقامة وتزكية النفس وصلاح القلب والمسارعة في الخيرات والعمل الصالح).

وهذه الثانية بعنوان: (ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) موضع نظر الله منك قلبُك وعمُلك هذا ميزانك فكلُ معرفة لا ينصلح به قلبك ويظهر أثرها على عملك فهي علم لا ينفع.

القلب من أخص وسائل المعرفة والمحرّك على العمل والله تعالى جعل للإنسان وسائل للمعرفة والعمل يُهتدى بها قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وذكر أقوامًا لم ينتفعوا بهذه النعم مُحذِّرًا من فعلهم:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

ومن الكلمات الجامعة لزهير: (لسانُ الفتى نصف، ونصفٌ فؤاده فلم يبق إلا صورةُ الدم واللحمِ، وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم، وهو الذي خصائصه وأعماله.

فالقلبُ من أعظم نعم الله تعالى، وهو أداةٌ يُعزى إليها معاني في المعرفة والعمل.

فالقلبُ هو الذي يفقهُ ويعقلُ ويتدبّرُ ويُمتحَنُ وهو محل النظر والتفكر، والإيمان والكفر، والهداية والضلال، والصدق والكذب، والتصديق والتكذيب، والعمى والمرض والشفاء، والثبات والتقلُّب، والخَتْم، والزَّيغ، والامتحان، وكذلك الكسبُ والتعمُّد، والإثم، والتطهير، المعرفةُ والإنكار، وكذلك الحب والتآلُف، والبغض، والرضا والإباء، واللِّين والقسوة، والتوكل والرجاء والخوف والرُّعب، الفرح والحزن والسلامة والاطمئنان، والغيظ وغير ذلك وكل ذلك له أدلته المبثوثة في الوحي.

ومن الألفاظ التي جاءت في الوحي يُعزى إليها بعضُ تلك المعاني: لفظ الفؤاد، والألباب، والأحلام والنُّهى، والحِجر، والصدر.

وباختصار فالقلبُ: مجمع الخير أو الشر في الإنسان وهو الباعث والمحرّك، وهو الأصلُ، ولذلك فهو المعتبر (كسبت قلوبكم. تعمدت قلوبكم. وعلى ما في القلب من العلم والنية والقصد تُعتبر الأعمال كما في قوله سبحانه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

فالكسبُ والتعمُّدُ لفظان يدلان على إرادة الفعل:

والأول: يرتبط بالنية ومحلها القلب.

والثاني: يدل على العزم والقصد وهذا مناط المؤاخذة عند الله.

إنما الأعمال بالنيات هي المحرك والباعث والموجه والمرشد موضع العلم والجهل والبصر قصة قارون يراها كما هي لا ينخدع ﴿طائف من الشيطان تذكروا﴾ كشّاف: ﴿وجعلنا له نورا﴾.

ولم يجعل الله تعالى لأحد من الخلق سلطانا على قلوب العباد ولا يُمكن إكراهُ أحد على ما في قلبه.

ومن معاني قوله تعالى: ﴿لا إكراه فى الدين﴾ أنه نفيٌ ونهي.

نفي: للإمكان بمعنى: لن تستطيع إكراه أحد على الإيمان لأن محله القلب ولا سلطان لك عليه.

ونهي: عن الإكراه المستطاع وهو إكراه الجوارح واللسان.

ولذلك قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

لأن الإكراه غيرُ ممكن على القلب، وهذا من حكمة الله تعالى ورحمته.

ولذلك فالقلبُ موضع نظر الله تعالى من العبد فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

والأدلة أيضاً كثيرة من السنة على أن أصل الإيمان في القلب منها:

قوله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

قال الإمام ابن تيمية رحمه اللَّه: (فإذا كان القلب صالحاً بما فيه من الإيمان علماً وعملاً قلبيّاً، لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق ...).

وقال ابن القيم رحمه اللَّه لما ذكر هذا الحديث: (ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود، الذي تصدر كلها عن أمره فهو فهو ملكها وهي المنفذة لما يأمرها به، القابلة لما يأتيها من هديته، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته، وهو المسؤول عنها كلها، لأن كل راع مسؤول عن رعيته: كان الاهتمام بتصحيحه وتسديده أولى ما اعتمد عليه السالكون، والنظر في أمراضه وعلاجه أهم ما تنسك به الناسكون).

فأصلُ الاستقامة من القلب ثم تسري في سائر الجسد، واستقامة القلب بقدر الاستجابة لله ولرسوله كما قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وِلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، فأخبر سبحانه وتعالى أن حياتنا إنما هي باستجاباتنا لما يدعونا إليه اللَّه والرسول من العلم والإيمان فعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك.

قال ابن تيمية رحمه اللَّه: (وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾).

اعتناء الوحي بالقلب ولقد جاء الحديث عن القلب ومكانته وأعماله وصفاته وأحواله وأسباب قوته وصحته وهدايته وأسباب ضلاله ومرضه وموته وعلاجه.

وأعظم طريق لفقه القلب ومعرفة أسباب صلاحه وهدايته وعلاج أمراضه: الوحي وبيانه من هدي النبي ﷺ ومن أعظم ما جاء في الوحي الحديثُ عن سلامة القلب أو مرضه أو موته وذكر أسباب حياته وصفاته.

القلب هو المصنع: تدخل فيه المواد الخام تمر به وعليه فيستقبلها فإما ينتفع بها وينفع أو لا كالتربة مع البذر؛ **الخلاصة** يمكن أن تشبه القلب بالمصنع.

المصنع مورد الأخبار وفيها غيب وأمور خارج مجال العقل لا يصل غليها بطريق مباشر والأحكام، والفتن والتشريع وفيه ما تخفى حكمته وفيها ما قد يُظن المصلحة في غيره وفيه ما تكرهه النفس ويخالف هواها.

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ».

ومن هنا كانت القلوب تجاه ما يعرض عليها (مثل ما بعثني – أنزل من السماء ماءا – البلد الطيب)

١– قلب صالح سليم يحسن الأخذ والتفاعل. وسيأتي الحديث عنه.

٢– قلب فيه مرض (من باب العلم أو العمل. شك ريب أو هوى وشهوة)

فريق ممن لديهم أصل الإيمان لكن عندهم نوعُ ريب وشك، ولم يقوموا بواجبات الإيمان من الجهاد والصبر والعمل بالشرع.

ومن الأخطاء التي رأيتُ كثيرا من المُتكلّمين في مسائل التكفير وأسبابه من المُصنّفين والشُّرّاح والطلبة يقعُ فيها:

أنّهم يجعلون من المكفِّرات (أسباب التكفير): الرّيْب والشك، وعدم اطمئنان القلب هكذا بإطلاق ودون تفصيل فيجعلون كُلّ شكٍّ وكلّ ريْب بأيّ درجةٍ، وفي أيّ جُزئية من الشريعة = مُكفِّرًا، ويُلحقون ذلك الذي وقع في نوعٍ من الشّك خارجًا عن دائرة الإيمان وداخلا في النفاق الأكبر أو الكفر الصريح.

قلتُ: وهذا غلطٌ كبير فقد يكونُ عند العبد بعضُ الريب أو عدم الاطمئنان التام في بعض جزئيات الشريعة (علما أو عملا) و ليس بكافر لكنه يكون بذلك ناقصَ الإيمان و مُعرّضًا للنفاق عند وقوعه في البلاء و الفتنة فالقِسمةُ المشهورةُ الثلاثيّة للناس (مؤمن – كافر – مُنافق) هي قسمةٌ إجماليّة و يدخُل في جملة المؤمنين صِنفٌ (معهم إيمانٌ صحيح

مجمل) ليسوا كفارا لكن عندهم شيء من الريب، ليس عندهم اطمئنان تام بالإيمان.. يظهر ذلك منهم عند الابتلاء (سواء كان بمصائب الدنيا، أو ابتلاء بسبب الدين) وإن عُوفوا من البلاء = ماتوا على الإيمان.

وهؤلاء هم المذكورون في مثلِ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾.

وكثيرا ما يذكرُ اللهُ ذلك الصنف من ضعفاء الإيمان المرتابين، ويُميِّزُهم عن المؤمنين الصادقين المطمئنين لإيمانهم، الصابرين لحُكم الله و شرعه كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

و قوله سبحانه عن الأعراب: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

وأغلب المذكورين في سورة التوبة هم من هذا الصنف، لم يكونوا كفّارا أصليين بل كان معهم إيمان مجمل وليست قلوبهم مطمئنةً بالإيمان، لكنهم عند البلاء= فُتِنوا و كفروا ولم يصبروا.. مثل هذا الصنف: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾، ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾

وهذا نص مهم جدا لابن تيمية رحمه الله في ذلك: (فعامةُ الناس إذا أسلموا بعد كفر أو وُلدوا على الإسلام، والتزموا شرائعه وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله = فهم مسلمون، ومعهم إيمان مجمل ولكنّ دخولَّ حقيقة الإيمان إلى قلوبهم إنما يحصل شيئا فشيئا -إن أعطاهم الله ذلك - وإلا فكثير من الناس: لا يصلون لا إلى اليقين ولا إلى الجهاد ولو شُككوا لشكوا ولو أُمروا بالجهاد لما جاهدوا **وليسوا كفارا ولا منافقين** بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يدرأ الريب، ولا عندهم من قوة الحب لله ولرسوله ما يقدمونه على الأهل والمال، **وهؤلاء** إن عوفوا من المحنة وماتوا= دخلوا الجنة وإن ابتُلوا بمن يُورد عليهم شبهات توجب رَيبهم، فإن لم يُنعم الله عليهم بما يزيل الريب وإلا صاروا مُرتابين، وانتقلوا إلى نوع من النفاق.)) كتاب الإيمان الكبير.

وسورة التوبة الفاضحةُ وقد ذكرتْ نماذج لأولئك المرتابين الذين امتُحنوا فكُشِفوا.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ (٦٤) التوبة.

- ✓ نموذج قالت الأعراب.
- ✓ على حرف.
- ✓ فإذا أوذي في الله ..
- ✓ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ..
- ✓ كلام ابن تيمية وغلط من يجعلون مطلق الشك كفر ..
- ✓ سورة الفاضحة ..
- ✓ الذي قرأ البقرة ..
- ✓ ابن عبدالرحيم..
- ✓ الذي قتل نفسه ..
- ✓ ولقد كنتم تمنون ..
- ✓ الذي قصّر وتنمى البلاء
- ✓ (ومنهم من عاهد..

قصة صديقي المعتقل في الفرق بين الثابت والمُعافى:

قابلتُ صديقا كان مُعتقَلًا جلس معي جِلسة طويلة يحكي عن عددٍ من المشايخ والدُّعاة وطلاب العلم الذين كانوا معه بالسِّجن، وذكر الجوَّ الإيمانيَّ الذي كانوا عليه في السجن وذكر من عبادتهم وزهدهم وعلمهم وصبرهم وتمسُّكهم بدينهم ثم ذكر شيخًا منهم أُخرِج من السجن؛ وبعد مُدة انقلب تماما، وفُتِنَ وتحوّل إلى ناشرٍ للباطل مُدافع عنه وعن أهله باسم الدّين، وصار ضيفًا على قنوات فضائية تنشر الباطل وتحارب الدين!

ثم قال صديقي: أنا هتجنن واللهِ!!

كيف لهذا الشيخ الذي كان يُعلمنا الثبات والتمسُّك بالدين والصبر عليه ويُحذِّرنا من الفتن، ذلك الشيخ الصوَّام القوَّام الحافظ لكتاب الله، ذلك الشيخ الذي عُذِّب في سبيل الله وصبر = كيف يُفتن هو ؟!! بل كيف يكون هو نفسُه فتنةً؟! ، لو أنا كنت مكانه وأُفرِجَ عني لكرّستُ باقي عمري للدعوة والعلم والإصلاح ومحاربة البدع وكشف الشبهات،

فقلتُ: رُوي مِن طُرقٍ كثيرة عن عبد الله بن مسعود ﷺ لما رآهم وقعوا في الغنائم يومَ أُحُدٍ: «ما كنت أحسب أن أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا وعَرَضَها حتى كان اليوم»، فلم يظهر له ذلك ولم يكن يحسبُه ممكنًا.

كنموذج مما ذُكر في كتاب الله امتُحِن به المؤمنون القتال والجهاد في سبيل الله وفى معركة أُحد عندما خالف الرماة الأوامر طلبا للغنيمة، تحول النصر إلى هزيمة، فتسرب اليأس إلى قلوب المنافقين، بينما ثبت المؤمنون في الميدان إلى جانب النبي ﷺ هذا الاختبار كشف صدق المؤمنين وكذب المنافقين، وهنا بدأ التشكيك من قبل المنافقين ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ وهذا هو الهاجس الذي يجيش في النفوس التي لم تخلص للـه وفي قلوبها ريب وشكٌ، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

ثم بيّن الحكمة ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

فقد كان هؤلاء مُعافَيْن من مثل ذلك الافتتان فلمّا امتُحِنوا = ظهر وتميّزُوا.

كذلك الأمرُ: شيخُك لم يكن ثابتًا راسخًا ثم فُتن. شيخُك كما هو، لكنه كان مُعافى من هذا النوع من البلاء فلم تظهر فِتنتُه وضعفُ إيمانه فلمّا اختُبِر ظهرت ...

وكثيرٌ منّا هكذا (حتى لو كان كثير العبادة، كثير المعرفة، كثيرَ الكلام = فهو يعبدُ الله على حرف): ليس ثابتًا؛ ولكنّه مُعافى، ولو ابتُلي= لفُتِن وما صبر، ولَظهرت خباياه.

ولا يثبت في مثل ذلك إلّا مَن يُثبتُ الله، ومن يحرص على سلامة قلبه، ويحصّن نفسه بالتقوى والعلم النافع وتزكية النفس ويداوم على محاسبتها.

ولا قوّة إلا بالله، فسل اللهَ العافيّة، ولا تتمنّ البلاء. ولا تقل: لو كنتُ مكانه لفعلتُ وفعلتُ، وأبصِر مواضع تقصيرك وضعفك الإيماني، وأسرع في علاجها، واجعل صلاح نفسك قضيّتَك التي تعيش لها أولًا وهدفك الأول، ثم إصلاح الأقرب.

الفتنُ التي يُمكن أن تُعرَض على العبد مُتنوعةٌ وهي أكثر وأوسع من أن يطمئن على نفسه ويأمن عليها بمجموعة معلومات يعرفها أو عبادات بدنيّة يُواظب عليها.

نعم بلا شك هذه أسبابٌ للنجاة؛ لكن الفتن متنوعة.

والفتن التي يُمتحن بها كثيرة ومتنوعة بالتكاليف الشرعية ومنها الصلاة والصيام والزكاة وغيرها والجهاد، والمصائب (الخوف والجوع والمرض والتعذيب) والعافية (الصحة والمال والجاه) وغيرها كثير كثير..

فتنة المال، الشُّهرة، شهوة النساء، فتنة الأقران الناجحين من حولك أو من ينافسونك في مجال عملك، والقُرب من المترفين الفاسدين .... وغيرها كثير جدا.

ولا يدري العبد -أبدا -بأي نوعٍ منها يُفتن، ثمّ قد يصبر على نوعٍ من البلاء دون بعض، يصبر على الصيام في اليوم الحار، وطول القيام بالليل، ويُعرض عليه صنوف المال الحرام فيصبرُ، بل لا يخطر بباله قط.

لكنه نفسه لا يصبر إن وقعت عينه على مُتبرّجة، فلا يزال يُفكّر فيها حتى تُعكّر عليه عبادته ودراسته. وتجرُّه لخطواتٍ في المعاصي = ليجد نفسه قد فعل منكرات وفواحش ما كان يخطر بباله أبدا أنه يمكن أن يقع فيها!

وآخرُ مُجاهدٌ يجود بنفسه، لكنّه قد فُتن لما رأى ٥٠ ألف دولار في يديه قد جُمعت للمجاهدين فلعب الشيطانُ برأسه، قال له: المالُ معك. والحياةُ جميلة، خُذ المال واذهب إلى أوروبا فعِش هناك وتنعّم. فصدّق إبليس عليه ظنَّه ففَعَلَ (حدث هذا بالفعل، والرجل الآن مفتون في أوروبا).

وهذا ثالث: فُتن بزميلٍ له في عمله متميّزٍ عليه = فلا زال الشيطان به ينزغ حتى جعله يحسده ويكيد له ويكذب ويخون ويظلم = فأدخله شُحُّ نفسه في منكرات عظيمة

وهذه فتاةٌ مُحجّبة فُتنت بنظرها للمتبرّجات حولها اللاتي يُبدين مفاتنهنّ = فقالت: فلماذا أعيشُ أنا هذا الشقاء. فخلعت حجابها...

وهنا مفتونٌ بكثرة علمه، أو كثرة عبادته، أو جهاده، أو إنفاقه. فخورٌ بنفسه مُحتقرٌ غيره

الواقع من حولك شاهدٌ: كم هم الذين سقطوا في الوَحل، ولم يكن يخطر على بالك قطّ إلا أنّهم أولياء صالحون بعيدون عن كل فتنة. فرأيتَهم بعينك قد فعلوا ويفعلون الموبقات. بل يجهرون بها!

أبواب الفتن كثيرة ومتنوعة بحيث لا يدري العبدُ:

- ✓ من أي الأبواب يُختبر ويُبتلى.
- ✓ ومتى يأتي البلاء، وكيف؟

فلا يأمن على نفسه أبدا مهما كثرت عبادته مهما كثرت معلوماته، مهما كان قريبا من الصالحين، بل يبقى راجيا خائفا= يسأل العافية، ولا يتمنّى البلاء.

فلا تأمن البلاء على نفسك أو على أحد قطّ لما تراه منه من علم أو عبادة أو صبرٍ على بعض أنواع البلاء، ووطّن نفسك على تحمُّل ما تراه من سقوطِ من سقطوا، واجعل ثباتَك على الاستقامة وثباتَ أهلك= قضيتَك وخُذ بأعظم أسباب الثبات، وعليك بكثرة الدعاء وكثرة الأعمال الصالحة وأخصُّ ما تواظب على إصلاحه وتفقُّده = قلبُك وكثيرٌ ممن يتحسّرون ويتعجبّون اليومَ ممن يرونهم قد انتكسوا وفُتنوا = هُم أنفُسهم يسيرون في نفس طريقهم، وليس في عُدّتهم علمٌ ولا عملٌ يمنعهم من نفس المصير !!!

هي مسألة وقت ...فاللهم عافيتُك خيرٌ لنا ولا قوة إلا بك، اقبضنا إليك غير مفتونين.

٣- قلب قاسي لا ينتفع بمعرفة ولا تنفعه آياتٌ كمن قال الله فيهم:

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ۚ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

فهذا الصنف لا تنفعه الآيات البينات مهما جاءته= فالضلال في القلب الذي به موانع قبول الهدى من الكِبر والجحود وحب الدنيا

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

ونهى الله المؤمنين أن يكونوا مثلهم: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

القلب الحي:

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٢) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

إذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا – ويرى الذين – فتخبت له قلوبهم – أيكم زادته هذه ايمانا ..

حديث هرقل في جملة ما وجهه من أسئلة لأبي سفيان عن ذلك النبي الجديد عن نسبه وخلقه ودعوته وشرعه ومنها عن أتباعه «فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لاَ».

فقال هرقل تعليقا عليها «وَسَأَلْتُكَ: أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ: لاَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ» فعلم أن ليس ملكا بل رسول حق وأتباعه يعلمون ذلك؛ من دلائل صدق الإيمان وصدق ذلك النبي الذي علمهم الإيمان؛ ذلك الإيمان إذا خاطت بشاشته القلوب؛ لأنه علمهم الإيمان قبل القرآن.

حديث جندب علمهم من هو الله وما هو الإسلام وما القدر وما الغيب والآخرة والجنة والنار، تعلُّمُهم وتعليمُهم الإيمانَ قَبلَ القرآن:

علمهم عن الله وعلمه ورحمته وحكمته وعدله وقدره، عن اليوم الآخر عن الإيمان معناه وتفاصيله مقتضياته، علمهم مقتضيات الإيمان، فكانوا بقصص القرآن وأخباره معتبرين، فكانوا على يقين وهدى، للأخبار مصدقين «إن كان قالها فقد صدق» / «....بقرة تتكلم... ».

وللشرع مستجيبين وعلى البلاء صابرين ولحكمة الله وقدره مسلمين (هذا ما وعدنا الله ورسوله، من المؤمنين رجال) فكان للقرآن عليهم سلطان أية واحدة كفيلة بأن يتخذ بها قرارا مصيريا لا يفكر في تبعاته، ويهون عليه في سبيل الله كل غال. وذلك في ذات الإله

رسول الله (أعلمكم وأشدكم. أمن هو قانت. الريح المرسلة.

- كان أبو بكر ﷺ ينفق على مِسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره فلما أنزل الله براءةُ عائشة رضي الله عنها كان مسطحٌ ممن تكلّم فيها بلا علم قال أبو بكر الصديق ﷺ: «والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال؛ فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، قال أبوبكر: «بلى، والله إني أحب أن يغفر الله لي». فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه وقال: «والله لا أنزعها منه أبداً» رواه البخاري.

- عمر ﷺ لما قال عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ لعُمر ﷺ فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ: «هِي يَا ابنَ الخَطَّابِ، فواللهِ مَا تُعْطِينَا الجَزْلَ وَلا تَحْكُمُ فِينَا بالعَدْلِ. فَغَضِبَ عُمَرُ ﷺ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ. فَقَالَ لَهُ الحُرُّ بن قيسٍ: يَا أميرَ المؤْمنينَ، إنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبيِّهِ -ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وَإنَّ هَذَا مِنَ الجَاهِلِينَ، واللهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلاَهَا، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى». رواه البخاري...**كان وقّافا عند كتاب الله ما أجملها ما أعظمها.**
- قالت عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «يَرْحَمُ اللَّهُ نِسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأُوَلَ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ شَقَّقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا» رواه البخاري (٤٤٨٠).
- إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ، يَقُولُ: «كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ المسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ».
- وعن أنس ﷺ قال: «كنتُ أسقي أبا عُبيدة وأبا طَلحة وأُبيَّ بن كعب مِن فَضيخ زهو وتمْر، فجاءهم آتٍ فقال: إن الخمر قد حُرِّمتْ يعني قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، فقال أبو طلحة: قم يا أنس فأَهرِقها، فأهرَقتُها».
- ولما قال رسول اللهﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض»، قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري ﷺ: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: "نعم"، قال: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قول بخ بخ؟!"، قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: "فإنك من أهلها"، فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة! فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل».
- ثابت بن قيس ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[الحجرات: ٢] -جلس ثابت بن قيس في بيته وقال: "أنا من أهل النار". واحْتَبَس عن النبي ﷺ فسأل النبي ﷺ سعدَ بن معاذ فقال: «يا أبا عمرو، ما شأن ثابت، أَشتكى؟!))؛ قال سعد: إنه لجاري، وما علمت له بشكوى. قال: فأتاه سعدٌ، فذكر له قول رسول الله ﷺ فقال ثابت: أُنْزِلَتْ هذه الآية، ولقد علمتم أنِّي من أرفعكم صوتًا على رسول الله ﷺ فأنا من أهل النار. فذَكَرَ ذلك سعدٌ للنبيِّ ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «بل هو من أهل الجنة» رواه البخاري ومسلم.

فالجزاء من جنس العمل: خاف الله في الدنيا خوفًا أقعده عن الخروج من بيته؛ فجازاه الله بالأمن من هذا الخوف في الدنيا قبل الآخِرة؛ فهو ممَّن يُقطَع بأنه من أهل الجنة.

مسؤولية حامل القرآن والمعرفة كتابُ الله يبعث في قلب حامله الروح التي تجعله حقيقًا به دليلا عليه بقوله وعمله

- سالمٌ مولى أبي حذيفة أحد الأربعة الذين أمر النبي أن يؤخَذ عنهم القرآن في معركة اليمامة كان واحدا من أبطالها وحملَة لواء المسلمين فيها.

ولما أخذ الراية يوم اليمامة بعد مقتل زيد بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين، قال له المهاجرون: أتخشى أن نؤتى من قبلك؟ فقال: بئس حاملُ القرآن أنا إذا) (البداية والنهاية ٦/٣٣٧).

هذا بالضبط ما أعنيه هنا حياة القلب؛ وهذا الذوق هو الذي استدل به هرقل على صحة النبوة حيث قال لأبي سفيان: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه؟ فقال: لا. قال: وكذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب. فاستدل بما يحصل لأتباعه من ذوق الإيمان، الذي إذا خالطت بشاشته القلوب لم يسخطه ذلك القلب أبداً؛ على أنه دعوة نبوة ورسالة لا دعوى ملك ورياسة.

﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِى فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (طه:٧٢).

فمن تعلم عن الله وأسمائه وحكمته وقدره وتعلم عن الإيمان ومعناه وشعبه ومراتبه وفضله ومقتضياته واستقام عليها زكت نفسه واطمئن قلبه = تذكر الله وعلمه وعدله ورحمته وحكمته وجزاءه كل ذلك بلسم يصبر العبد على العبودية وعلى قدره ويقوى على طاعته بقدره بل تتحول معه كل تلك الأمور إلى راحة وقرة عين.

فهذه المقدمات هي المحكمات / الغذاء الذي ينبغي أن تطلبه وينبت منه لحمك ولحم أبنائك؛ ومن ضبطها رد إليها الجزئيات والتفاصيل وكُشفت أمامه الشبهات وبان أنها هواء، وانحلت معه الإشكالات -إن شاء الله-.

﴿يثبت الله الذين آمنوا﴾

ذلك الإيمان الذي يخالط القلوب؛ ويذوق به العبد طعم الإيمان طعم الإيمان لأنه سيرضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا = سيجد حلاوة الإيمان لأنه سيحب الله ورسوله أكثر من حبه لأي شيء، ولأنه سيكره العودة في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار.

عبادة الله ومحبته ورجاءَه وتعظيمه هي قُرة العيون وسرور القلوب غذاءُ الأرواح، وقُوتُ الأبدان وإنما يقوى العبد ويرشد ويفرح ويطمئن ويسعد بقدر إخلاصه في عبادة الله

حلاوة الإيمان:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ؛ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ» رواه البخاري ومسلم.

طعم الإيمان:

قال النبي ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الإيمانِ مَنْ رَضِيَ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمَّدٍ رَسُولاً» رواه مسلم.

الفرح:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

الطمأنينة:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

الأمن والاهتداء:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾

الحياة الطيبة:

وقال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ تعلمنا الإيمان قبل القرآن. معنى خالطت بشاشته ذاق طعم الإيمان ووجده فأبصر وجعل الله له فرقانا وسهل عليه كل شيء وجعل الأشياء في ميزانها عند الله؛ هكذا تلقوا العلم والمعرفة؛ فعلم ما في قلوبهم.

السؤال: ما الذي يعلمه الله عن قلبك؟ ، وهل يمكن أن يُشفى من موانع الانتفاع: العلم بالتعلم الصبر بالتصبر.

أيها الشباب:

بعد ورود المعرفة على قلب العبد فهو مرفوع أو موضوع عند الله؛ يعظم عند الله بنيته وقلبه وإرادته وسعيه حتى يصير كأنه أمة جبل خير من ملء الأرض من خير؛ ويتصاغر حتى بمعرفته حتى يكون: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾.

لذلك من تعلم الإيمان هو الذي ينتفع بالآيات؛ ولذلك كانت هذه الدورات

أسأل الله لنا ولكم العلم النافع والعمل الصالح.

